كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

حَدِيثُ الاستئذانِ عَلَى الأُمِّ
" رؤيةٌ استشرافيّةٌ في ضوءِ نحوِ النَّص"

إعداد

د/ علي نجار محمد حسن

أستاذ النحو والصرف المشارك
قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ
جامعة جازان ـ المملكة العربية السعودية

(العدد السابع والثلاثون الجزء الثاني ٢٠١٨م)

الملخص باللغة العربية

لم يتوقف تشريع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس عند ماضيهم، أو حاضرهم الذي عاشه معهم فحسب، وإنما امتدَّ ذلك إلى مستقبل البشرية جمعاء، واستشراف ذلك المستقبل استشرافا يَسْبِرُ غَوْرَ النفس البشرية، ويعمل على تربيتها، لا سيما في الجانب الاجتماعي، بل في خصيصةٍ فطرية لدى البشر، ألا وهي الميل الجنسي.

وهذا البحث يدرس استشراف السُّنة لهذا الميل الفطري ومعالجته من خلال حديثٍ واحدٍ يُشيرُ إلى غيرِه؛ وهو قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمن سأل عن الاستئذان على أمه:" ... أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟!..."، وتأتي دراسة هذا الاستشراف في ضوء نظرية نحوية حديثة؛ ألا وهي نظرية (نحو النص) التي تقوم على سبعة معايير؛ هي (السَّبْكُ ـ الحَبْكُ ـ القَصْدِيَّةُ ـ المَقْبُولِيَّةُ ـ التَّناصِّيَّة ـ المَقامِيَّةُ ـ الإِعْلَامِيَّةُ).

وينتظم البحث في خطة مُنشأةٍ على المنهج الوصفي القائم على التحليل والاستنباط؛ مما يربط بين المعايير النصيَّة وأدواتها وفقه النص، في إطار خطةٍ عِمادُها: مقدمة، ومبحثان، وخاتمة بها النتائج والتوصيات يتلوها مصادر البحث وفهرسُه.

كلمات مِفتاحية:

استشراف ـ معايير نحو النص ـ الحديث محل الدراسة ـ فقه النص.

الملخص باللغة الإنجليزية

The legislation of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) did not stop the people in their past, or their present with which they lived, but extended it to the future of all humanity, and looking forward to that future, exploring the human psyche and cultivating it, especially on the social side. An innate characteristic of humans, sexual orientation.

This research examines the year's anticipation of this innate inclination and its treatment through one hadeeth referring to others. It is the saying of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) who asked about his mother's permission: "... do you love to see it naked? ..." In the light of modern grammatical theory; a theory (about text) based on seven criteria; (The casting of the intentional obedience of the intercessional media conglomerate).

The research is based on a descriptive approach based on analysis and synthesis, which combines textual standards, tools and jurisprudence, within the framework of a plan based on an introduction, two sections, and a conclusion with the results and recommendations followed by the research sources and index.

Keywords:

Predicting standards towards the text under study jurisprudence.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله" عالم الغيب والشهادة"، والصلاة والسلام الأتمّانِ الأكملانِ على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ القائل:" يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلبَكَيْتُمْ كَثِيرًا!". [متفق عليه].

وبعد ...

فما كان النبي الخاتمُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لِيَذَرَ الناس على ما هم عليه حتى يَمِيزَ لهم الخبيثَ من الطيب من الأخلاق والمعاملات، في جميع دروب الحياة؛ اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، وعسكرية،...، ولأنه المرسَلُ بالكلمة الأخيرة من السماء إلى الأرض، تلك الكلمة التي ستبقى إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها؛ فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يتوقف تشريعه للناس عند ماضيهم، أو حاضرهم الذي عاشه معهم فحسب، وإنما امتدَّ ذلك إلى مستقبل البشرية جمعاء، واستشراف ذلك المستقبل استشرافا يَسْبِرُ غَوْرَ النفس البشرية، ويعمل على تربيتها، لا سيما في الجانب الاجتماعي، بل في خصيصةٍ فطرية لدى البشر، ألا وهي الميل الجنسي؛ إذ يقول ـ سبحانه وتعالى ـ : " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ". [سورة آل عمران: الآية ١٤]؛ فالأمر مُزَيَّنٌ فِطْرَةً وخِلقَةً.

وهذا البحث يدرس استشراف السُّنة لهذا الميل الفطري ومعالجته من خلال حديثٍ واحدٍ يُشيرُ إلى غيرِه؛ ولا غَرْوَ! فقد أوتي ـ عليه الصلاة والسلام ـ جوامعَ الكلم، وكل نصٍّ من نصوصه الشريفة يحتاج إلى شروح.

وهذا الحديث هو قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمن سأل عن الاستئذان على أمه:" ... أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟!..."، وتأتي دراسة هذا الاستشراف في ضوء نظرية نحوية حديثة؛ ألا وهي نظرية (نحو النص) التي تقوم على سبعة معايير؛ هي (السَّبْكُ ـ الحَبْكُ ـ القَصْدِيَّةُ ـ المَقْبُولِيَّةُ ـ التَّنَاصِّيَّة ـ المَقَامِيَّةُ ـ الإِعْلَامِيَّةُ).

ولا عَجَبَ؛ فالنحو هو العلم المستطيل؛ كما أخبرتنا كتب التراجم[1] عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن استطالته أنَّ الكلامَ بِهِ يَكْمُل، وَالخطابَ بِهِ يَجْمُل، والعلومَ جميعَها مفتقرةٌ إليه؛ لذا فإنه لا يتخطَّى هذا الجانبَ الدرسيَّ الاستشرافيّ، لا سيما في علوم الكتاب والسنة، خاصة أن نحو النص" يتخذ من النص وحدته اللغوية الكبرى للتحليل، ويتيح لشخصية الباحث وقدرته أن تمتدَّ إلى مستوى ما وراء الجملة مستوياتٍ ذاتَ طابعٍ تَدَرُّجِيٍّ؛ يبدأ من علاقاتِ ما بين الجمل، ثم الفقرة، ثم النص أو الخطاب بتمامه". [2]

وينتظم البحث في خطة مُنشأةٍ على المنهج الوصفي القائم على التحليل والاستنباط؛ مما يربط بين المعايير النصيَّة وأدواتها وفقه النص، في إطار خطةٍ عِمادُها:

مقدمة : ذكرتُ فيها هدف الموضوع، ومنهجه، وخطته، ثم مدخلٌ مختصر حول الدراسات المستقبلية ونظرية نحو النص، ثم الحديث الشريف محل الدراسة وتخريجه، ثم مبحثان:

(١) ينظر على سبيل المثال: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ لابن خلكان ١/ ١٠٢.

(٢) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص؛ د. سعد مصلوح: ص ٤٠٧.

أولهما ـ تجليات السبك والحبك في النَّصِّ وأثرها في فِقْهِهِ.

ثانيهما ـ تجليات القصدية، والمقبولية، والتناصية، والمقامية، والإعلامية في النص.

ثم **خاتمة** : تشمل ما توصل إليه البحث من نتائج وتوصيات، وأخيرا ثَبَتُ المصادر والمراجع، وبعده فهرس المحتويات.

وعلى الله قَصْدُ السبيل!

مدخل :

تجمع هذه الورقة العلمية بين غصنين من غصون العلم التي أَزْهَرَتْ حديثًا؛ ألا وهما الدراسات المستقبلية أو الاستشرافية ونحو النص، والجذر الذي يجمعهما حديثُ من لا " "يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى" ـ صلى الله عليه وسلم ..

أما الدراسات المستقبلية فلها تعريفات[١] عديدة، والذي أُراه مناسبا لدراستنا هذه هو أنها" جهد علمي لاستشراف المستقبل، وتَشَوُّفِه، ورؤيتِه؛ بغيةَ إحسان التعامل مع الواقع القائم، والسعي لتحقيق أهداف محددة"[٢].

وتُؤَرِّخ أكثر الكتابات التي بحثت في نشأة هذه الدراسات أنها نشأت بتكوُّن مؤسسة (راند RAND) الأمريكية، وبالتحديد حين استقلالها ١٩٤٨م[٣].

وقد" تطور هذا العلم، حتى أصبح علما له أصول ثابتة وقواعد في البحث، ووصل في النصف الثاني من القرن العشرين إلى مستوى دراسة أكاديمية، تقوم على مناهج، ونظريات، واستراتيجيات"[٤].

وعلى المستوى العربي" أُقيمَتْ مراكز للبحوث للدراسات المستقبلية؛ مثل: مركز قطر لدراسات المستقبل، وكذلك مشروع وثيقة استشراف المستقبل للعمل

---

(١) تنظر هذه التعريفات في: الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية ـ رسالة ماجستير؛ للباحث/ عبد الله محمد المديفر ـ جامعة طيبة بالمدينة المنورة ١٤٢٧هـ؛ ص ١٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر؛ ص ١٧، ٤٥. والمرجع السابق؛ ص ٢٩.

(٣) ينظر: الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية؛ ص ٥٦ بتصرف يسير.

(٤) ينظر: استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية . رسالة ماجستير في الحديث الشريف؛ للباحث/عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع . كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية ٢٠٠٥م؛ ص ٢.

التربوي في الدول الأعضاء لمكتب التربية العربي لدول الخليج، ووثيقة مدرسة المستقبل التي نُشِرَتْ في أواخر عام ٢٠٠٠م، التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية الثقافية والعلوم، وغيرها من المؤسسات التي تُعْنَى بذلك"(١).

وأما نحو النص فهو" علمٌ بمبادئَ يُعرف بها النصُّ من خلالِ سبعةِ معايير، وغرضُه هو معرفةُ كيفيةِ تحقُّقِ نصيّةِ النصّ "(٢).

وهو مصطلح مركب من كلمتين: (نحو ونص)؛ أما الجزء الأول من التركيب وهو (النحو) فمهومه" يختلف في الدراسات النصية عنه في الدراسات التقليدية المتعارف عليها؛ إذ يتعدى ما أراده المتقدمون من النحاة العرب وبعض متأخريهم من المحققين من معرفة تأليف الكلام العربي، فهو هنا يحمل طابعًا خاصًّا يبتعد كثيرًا عن القواعد أَو القيود الصارمة التي تطبق على النص، ولا يتضمن مفهوم القاعدة إلا مجموعة من القوانين الاختيارية التي استُخلصت من النص ذاته، وهذه القوانين دلالية تتجه إلى تحديد المعنى الكلي للنص؛ بمعنى أَنه يهدف إلى تحديد القواعد التي تحكم بنية المعنى، وبناء عليه تتجاوز تلك الدلالة الكلية للنص مجموع المعاني الجزئية للجمل التي تكونه "(٣).

(١) ينظر: استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية . رسالة ماجستير في الحديث الشريف؛ للباحث/عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع . كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية ٢٠٠٥م؛ ص ٢.

(٢) نحوُ النصِّ نظرية وتطبيق سورة آل عمران أنموذجًا ؛ ص ٢٩.

(٣) علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) للدكتور/ سعيد حسن بحيري؛ ص ٢١٨ : ٢١٩ ، وينظر: نحوُ النصِّ نظرية وتطبيق؛ ص ١٦.

وأما النص فأقرب تعريفات المحدثين له وأوضحها قولهم:" النص لا يصبح نصًّا إلا إذا كان رسالة لغوية تشغل حيزًا معينًا، فيها جديلة محكمة مضفورة من المفردات والبنية النحوية، وهذه الجديلة المضفورة تؤلف سياقًا خاصًّا بالنص نفسه ينبثُّ في المُرسَلةِ اللُّغويةِ كلِّها "(١).

وهذا التعريف على حداثته لا تجد فيه روح الجمال والإتقان التي تجدها عند عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ وهو يقول في نظم الكلام:" "واعلمْ أنَّ مَثَلَ واضِعِ الكلام مَثَلُ مَنْ يأخذ قطعًا من الذهب والفضةِ؛ فيُذيبُ بعضَها في بعضٍ حتى تَصير قطعةً واحدةً"(٢).

ففكرة النص وانسجامه واضحة في ذهن العلامة عبد القاهر ـ رحمه الله ـ وضوحا بارزا، وبنية النص في تصوره تصل إلى مرتبة الصهر الذي يتيح للناظم الوصول بنصه إلى أعلى درجات التشكيل.

ونظرية نحو النص هدفها الرئيس الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص؛" من حيث إنَّ المعنى في نحو الجملة لا يظهر مرتبطًا بالدلالة المطلقة للنص، وينحصر في نطاق دلالي ضيق منفصل، لا يمكن أَنْ يفهم منه السياق العام للخطاب..."(٣).

وهذا الاجتزاء يَحرِمُ النصَّ قيمته الدلالية بتقطيع أَوصاله، وانعدام العلاقات داخله.

---

(١) علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) للدكتور/ سعيد حسن بحيري؛ ص ٢١٨ : ٢١٩ ، وينظر: نحوُ النصِّ نظرية وتطبيق؛؛ ص٢٥.

(٢) دلائل الإعجاز ١ / ٤٢٣.

(٣) نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب؛ د. مصطفى النحاس؛ ص ١١.

والحقُّ أنَّ كثيرًا من علمائنا القدماء قد جمعوا بين الاثنين، لا سيما المفسرين والبلاغيين والأُصوليين وغيرَهم ممن تعاملوا مع النصوص ومع الجملة.

وتعتمد هذه النظرية على سبعة معايير؛ هي (السَّبْكُ . الحَبْكُ . القَصْدِيَّةُ . المَقْبُولِيَّةُ . التَّناصِّيَّةُ . المَقامِيَّةُ . الإعْلامِيَّةُ).

وهدف هذه الورقة العلمية تطبيقها . ما أمكنَ . على الحديث الشريف محل الدراسة، وتوظيفها في دلالاته وفقهيَّاته.

الحديثُ مَحَلُّ الدراسة وتخريجه

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ :

حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ سَأَلَهُ رَجُلٌ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا»؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا؛ أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟!» قَالَ: لَا؛ قَالَ: «فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا»"[1].

---

(١) ينظر: موطأ الإمام مالك؛ المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛ صححه ورقمه وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٦ هـ/١٩٨٥م؛ ٢/ ٩٦٣ (الحديث رقم (١) من كتاب الاستئذان)، وينظر: المراسيل؛ لأبي داوود؛ المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ المحقق: شعيب الأرناؤوط ـ الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ؛ ص ٣٣٦، والسنن الكبرى؛ للبيهقي؛ المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ المحقق: محمد عبد القادر عطا ـ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م؛ ٧/ ١٥٧ (الحديث رقم ١٣٥٥٨). وذكر ابن عبد البر في: الاستذكار أنه " لَا أَعْلَمُ هَذَا الْحَدِيثَ يَتَّصِلُ بِهَذَا اللَّفْظِ مُسْنَدًا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه، وهو من صحاح المراسيل"؛ ينظر: الاستذكار؛ المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)؛ تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض ـ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م؛ ٨/ ٤٧٣. وقال في: التمهيد ١٦/ ٢٢٩:" هُوَ مُرْسَلٌ صَحِيحٌ مُجْتَمَعٌ عَلَى صِحَّةِ مَعْنَاه". ينظر:التمهيد لما= = في الموطأ من المعاني والأسانيد؛ المؤلف:

المبحث الأول

تَجَلِّيَّاتُ السَّبْكِ والحَبْكِ في النَّصِّ وأثرُها في فِقْهِهِ

المحور، أو البؤرة، أو المفتاح، أو النواة التي تنطلق منها دراسة النص الكريم؛ هي سبر غور النفس وتربيتها في غريزة فُطِرَ عليها البشر؛ ألا وهي الميل الجنسي تجاه المرأة، واستشراف ما يمكن أن يقعَ لو لم يؤخذ بحكمة النص الشريف، ويمكننا أيضا قلب الصورة؛ فنقول الميل الجنسي إلى الرجل، وإذا كان الحديثُ صريحًا في كون مقامه مع رجلٍ تجاه امرأة؛ فإنه ينطبق أيضا على المرأة تجاه الرجل؛ فَمَنْ تلك التي تحب أن ترى أباها عريانًا؟!

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)؛ تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري ـ الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ١٣٨٧هـ. والحديث له في القرآن الكريم أصل؛ فقد " قال بن جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبٌ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَسْتَأْذِنَ عَلَى أُمِّهِ وَذَاتِ قَرَابَتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ!= = قُلْتُ: بِأَيٍّ وَجَبَتْ؟ قَالَ: قَوْلُهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا). سورة النُّورِ: من الآية ٥٩؛ ينظر: الاستذكار ٨/ ٤٧٤.

وقد ذكر الشيخ الألباني في تحقيقه على: مشكاة المصابيح ٣/ ١٣٢٤ (الحديث رقم ٤٦٧٤) أنه" لم تتمَّ دراستُه". ينظر: مشكاة المصابيح؛ المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (ت: ٧٤١هـ)؛ المحقق: محمد ناصر الدين الألباني ـ الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

أولا ـ مظاهر السبك في الحديث الشريف محل الدراسة :

السبك:" يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط"(١)، ويعرف أيضًا بالربط الرصفي أو التضامّ.

وعناصر السبك النحوي هي :

١ ـ الإحالة: وتشمل الضمائر، والإشارة، والموصول، والمقارنة.

٢. الحذف: وهو علاقة تتم داخل النص، ويظهر" عندما تشتمل عملية فهم النص على إمكانية إدراك الانقطاع على مستوى سطح النص"(٢)؛ إذ "يميل المتكلم إلى إسقاط بعض العناصر من الكلام اعتمادًا على فهم المخاطب وإدراكه للعناصر المحذوفة تارة، ووضوح قرائن السياق تارة أخرى"(٣).

٣ ـ الاستبدال: وهو تعويض عن عنصر في النص بعنصر آخر.

والفرق بينه وبين الحذف هو أن الاستبدال يترك أثرًا من المستبدَلِ به، بينما الحذف لا يترك أثرا من المحذوف(٤).

٤ ـ الوصل: وهو تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم(٥). ومن أبرز أدواته النحوية التي لا يستغني عنها نص ـ العطف.

---

(١) النص والخطاب والإجراء؛ ص ١٠٣.

(٢) نظرية علم النص؛ ص ٨٧.

(٣) علم اللغة النصي ١٩١/٢.

(٤) لسانيات النص للخطابي؛ ص ١٩.

(٥) ينظر تعريف الوصل وأنواعه بتمامها في المرجع السابق؛ ص ٢٢ ، ٢٣.

ومظاهر السبك في الحديث جَليَّةٌ، وأول عناصرها الإحالة بالضمائر المتنوعة؛ إذ" للضَّمير وظيفة نصِّيَّة تتمثَّل في قُدرته على تحقيق التَّماسُك والترابُط في النَّصِّ، من خلال علاقته بما يُحيل أو يشير إليه؛ ولذلك اهتمَّ به علماء اللغة النصِّيون وأوْلَوْهُ عنايةً كبيرة في التَّحليل النصِّي"(١).

ونحاتُنا القدامى عاشوا هذه الوظيفة النصِّية للضَّمير في مؤلفاتهم؛ فقد جعَلَه ابنُ هشام ـ رحمه الله ـ عند حديثه عن عوامل الربط بين المبتدإِ والخبر الجملة ـ جعله الأصلَ في الروابط النصِّية(٢).

وقد" أكَّد علماء النَّصِّ أنَّ للضَّمير أهمِّيَّةً في كونِه يُحيل إلى عناصر سَبَقَ ذكرُها في النَّصِّ ... وأنَّ الضمير (هو) له مِيزتان؛ الأولى ـ الغياب عن الدَّائرة الخطابيَّة. والثانية ـ القدرة على إسناد أشْياء معينة، وتجعل هاتان المِيزتان من هذا الضمير موضوعًا على قَدْرٍ كبير من الأهمية في دراسة تماسُك النصوص"(٣).

ومما لا ريب فيه أن أهمية الضَّمير في تحقيق التَّماسك تبرز عن طريق مرجعية الضَّمير؛ أي: بإدْراك علاقة الربط التي يقيمها الضَّمير بينه وبين العنصر الإشاري الذي يفسره، أو يحيل إليه.

وقد تتحتَّم العودة إلى السياق الخارجي لإدراك الترابط بين العنصر الإحالي والعنصر الإشاري، كما في الحديث محل الدراسة الذي سأُقاربه بعد قليل، ويضع النصيُّون شرطًا في كل مضمر، حيثُ يشترِطون "في كل مضمر أن يكون له مفسّر

(١) ينظر: علم اللغة النصي ١/ ١٤٣.

(٢) ينظر: مغني اللبيب؛ ص ٦٤٧.

(٣) ينظر: علم اللغة النصي ١/ ١٦١، والتماسك النصي في الحديث النبوي الشريف؛ ص ٩.

مناسب يَحكمه، وهذا التحكُّم يتمُّ بصَرْف النَّظَر عن موقع المفسر بالقياس إلى المضمر، سواء أكان سابقًا عليه أم لاحقًا عليه"(١).

غير أن هذه العلاقة بين الضمير وما يحيل إليه قد تكون غامضة؛ مما يمثل صعوبة من صعوبات التحليل النصي، وغالبًا ما يفيد السياق في إزالة غموض مرجعيَّة الضمير.

ولذلك لا يفتأ النصِّيُّون يؤكِّدون على دوْر السياق في معرفة مرجعية الضمير، خاصَّة إذا كان غامضة مرجعيَّته، وكذلك إذا كانت مرجعيَّته خارجيَّة، فتعتمد المرجعيَّة الخارجية على سياق الحال؛ لأنَّه في الغالب، بدون السِّياق نقِف عاجزين أمام تفسير ما يُقال(٢)، وسيتَّضح دوْر السياق كوسيلة من وسائل التَّماسُك أو التَّرابُط النَّصِّي من خلال النص الحديثي.

وقد اشتمل نصُّنا الذي يبدأ الحوار فيه بين السائل والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقول السائل:" يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟"؛ اشتمل على تسعة عشر ضميرا محالةٍ إلى الابن وأمه، والمستشرِفِ الصادقِ الأمينِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

بدأَتْ بضمير المتكلم (أنا) المستتر في الفعل المضارع (أستأذن)، علما بأن الهمزة المذكورة في النص تحتمل أن تكون همزة الاستفهام الحقيقي، وحذفت همزة المضارع لدخول همزة الاستفهام عليها؛ تخفيفا، وهذا من سُنَنِ العرب في كلامها،

(١) نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا، للأزهر الزناد؛ المركز الثقافي، ط١، ١٩٩٣م، صـ١٢٣.

(٢) علم اللغة النصي بين النظرية والتَّطبيق ١/ ١٦٥، وغموض مرجعية الضمير يمثل صعوبة من صعوبات التحليل النصي؛ ينظر: سعيد بحيري، دراسات لغوية تطبيقية، ص٣٣، ٩٤.

وتحتمل أن تكون همزةَ المضارعة، والاستفهامُ مفهومٌ من التنغيم الصوتي والسياق. وفي الحالين نستطيع أن نقول إن السائل كان متشوقا لإجابة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحذَف إحدى الهمزتين؛ للوصول إلى بغيته سريعا.

والضمير هنا له دور بارز في سبك النص؛ فالسائل يُصَرِّحُ من مطلع الحوار أن القضيةَ قضيتُه، والسؤالَ سؤالُه، والحالةَ حالتُه؛ فهو لا يستفسر لأحد، أو يتحدث بشكل عام، وكان بإمكانه أن يقول مثلا:" يا رسول الله، ماذا عن الاستئذان على الأم؟"، أو يقول ـ كما يحدث كثيرا في زماننا ـ:" إن لي صاحبا سألني عن الاستئذان على الأم؛ فسألتُك" ... إلخ من أساليب الاستفهام المتنوعة.

ولذا كان التعبير بالفعل المضارع الذي فاعله (أنا) من دون غيره من الأساليب الأخرى ـ ذا دلالة مهمة في هذا السبك، كما أن المضارع يدل على التجدد والحدوث، وتكرار صورة الحدث في الذهن، وهذا مناسب للقضية الفقهية بؤرة الحوار؛ فهذا الرجل ـ وغيره من السائلين الذين لم يسألوا، ولكن الخطاب لهم وللابن، ولغيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ سيتكرر دخوله على أمه مِرارًا لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ولأن السائل هو صاحب القضية مع أمه فإن الضمائر معظمَها ستُحال إليهما في بقية النص؛ فقد قال الرجل:" إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ"؛ فيؤكد مرة أخرى أنه صاحب المسألة بضمير المتكلم المتصل في (إنّي)، ثم يأتي ضمير الغيبة المتصل العائد على الأم في (معها)؛ ليبرز السبكُ جَليًّا في النص القائم على الابن صاحب ياء المتكلم، والأمِّ صاحبة ضمير الغيبة الذي من مِيزاته أنه يعبر عن غياب صاحبه عن الدَّائرة الخطابيَّة؛ وهنا إشارة إلى حال المجتمع العربي الأول؛ فالنساء لا تخالط الرجال، حتى وإن كانت امرأةً بَرْزَةً عجوزًا؛ فالأولى بها الستر، ويعبر القرآن الكريم

عن ذلك بالاستعفاف؛ إذ يقول:" وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"(١)، ومما لا شكَّ فيه أن هذا الاستعفاف خيرٌ للمجتمعات، وهذا قمة الاستشراف المستقبلي لما يترتب على عدم الاستعفاف من أَذًى وفساد وخرابٍ لا سيما في زماننا هذا الذي خَرِبَتْ فيه الذِّمَمُ، وفَسَدَت العقائدُ والنفوس، بل يُحارَبُ الشباب بغرائزهم، وتتعالى الأصوات الداعية إلى كسر الحاجز النفسي بين الجنسين بأن يلتقيا؛ ليضيع الخجل بينهما؛ فيستطيعا التعارف الجيد، ولا يقعا في أزمة نفسية بعد الزواج . " كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا"(٢) .؛ فماذا يفعل الشاب أمام غريزة فطرية، تتحرك في دمه، وهو يرى إمكانية تفريغها، وكذلك ماذا تفعل الفتاة وهي أشدُّ حاجةً إلى ذلك؟!.

بل ماذا يفعل أي إنسان يتحرك في عروقه دَمٌ؟! وإني لا أنسى أبدًا ذلكم المُخرج السينمائي المصري الشهير الذي استضافه أحد البرامج منذ ما يقرب من عقدين من الزمان أو يَزيد؛ كي يقص عليهم شيئا من رحلة (إبداعه!)؛ فإذا به يحكي فيما حكي عن مشهد في فيلم قديم مشهور في (السينما) المصرية . وقد كان مُخْرِجَه وممثلا فيه . يحكي عن مشهد سقوط الماء عامًّا جسدَ البطلة . كما يُطلَق عليها في ذلك الوسط .، وكيف أن ملابسها التصقت بجسدها، وهنا لم يستطع أن يُمسِكَ نفسه؛ فخرج منه ما يخرج من الرجال! إنها الفطرة!.

وما إشكاليَّاتُنا الاجتماعية الناجمة عن هذا الاختلاط منَّا ببعيد؛ فها نحن نشاهدها صباح مساء على شاشات الفضائيات المباشرة؛ فهذان شاب وفتاة

(١) سورة النور: الآية ٦٠.

(٢) سورة الكهف: من الآية ٥.

جامعيّان أو في مرحلة الثانوية، وقد يكونان أصغر من ذلك ـ لم يجدا حلًّا لمشكلتهما العاطفية سوى الزواجِ العرفيّ، أو الزواج باختلاط الدم؛ بأن يُخْرِجَ الشاب نقطة دَمٍ من إبهامه، وكذلك الفتاة . كأنهما يقومان بعمل عينة لمعرفة فصيلتهما الدموية . ثم يقومان بلصق الإبهامين؛ ليختلط الدموانِ؛ وبهذا قد أصبحا روحًا واحدةً، وجسدًا واحدًا . كما يعتقدان وَيُزَيِّنُ لهما الشيطان . ويجوز لهما أن يفعلا كل شيء سويًّا، ثم بعد أن يقع المحظور يصرخ المجتمع كله ويستغيث بأهل العلم الشرعي؛ أين أنتم؟! وأين مؤسساتكم؟!، وتخرج البرامج الإذاعية، والتلفازية، والفضائية، واليوتيوبيَّة؛ لتلوم العلماء، وتنادي بتجديد الخطاب الديني، وقد نسَوا أنهم هم الذين أشاعوا الفاحشة في المجتمعات؛ بنشر أفلام الرذيلة، والتصفيق للقائمين عليها، واستضافتهم في البرامج المتنوعة، ووصفهم بالأبطال والنجوم، ومنحهم الجوائز المحلية والعالمية، بل هم النخبة الذين إن قالوا يُسمَعْ لقولهم، وإن ساروا يُشَرْ إليهم بالبَنان . من يتابع البرامج الفنية وغيرها لا يحتاج على ذلك إلى دليل ..

ونقول لأولئك:

مَتَى يَبْلُغُ البنيانُ يومًا تمامَهُ ∴ إذا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ؟!

إنهم يُمَزِّقون الفضيلةَ، ويَنْحَرُون الحياءَ والعفاف.

وبالطبع الباحث لا يدعو إلى العزلة المجتمعية بالمفهوم المتعنِّت، لا سيما في ظل ظروف اجتماعية واقتصادية متجددة ومتنوعة، ولكني أدعو إلى تطبيق ما رآه الشرع والفقهاء مناسبا لهذه الظروف من دراسة المرأة وعملها، وزيِّها الذي يجب أن تلتزم به وقت خروجها، وحشمتها ووقارها في تعاملها مع الآخرين، وعدم

مخالطتها الرجال؛ لا أن يُفتَحَ الباب على مِصْراعيه؛ فتجالس المرأةُ الرجلَ في مكتب واحد، ويحكي أحدهما للآخر عن همومه، وظروفه، وأحواله، ثم ينتهي الأمر بعلاقة آثمة عمليًّا أو معنويًّا... وَهَلُمَّ جرًّا!.

ومن يتدبَّر قوله ـ تعالى ـ:" يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُن"(١)؛ يَلْمَحْ ـ والله أعلم ـ أمرًا عجيبا في بلاغة خطاب الآية الكريمة؛ وهو الاقتصار على صورتين فقط من السُّخرية (قوم من قوم) و (نساء من نساء)، والقوم في عربيتنا يُقصَد بهم الرجال(٢)؛ يقول السمين الحلبي ـ رحمه الله ـ:" والقومُ: اسمُ جمعٍ؛ لأنَّه دالٌّ على أكثرَ مِن اثنين، وليس له واحدٌ من لفظِهِ ولا هو على صيغةٍ مختصَّةٍ بالتكسيرِ، ومفردُه: رَجُل، واشتقاقُه مِن: قام بالأمرِ يَقُوم به؛ قال ـ تعالى ـ:" الرِّجَالُ قَوَّامُونَ

(١) سورة الحجرات: من الآية ١١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة؛ لابن فارس (ق،و،م) ٥/٤٣. قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: "القوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القُوّام بأمور النساء؛ قال الله ـ تعالى ـ : " الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساء". [سورة النساء: من الآية ٣٤]. ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل؛ المؤلف: أبو القاسم محمود ابن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ـ الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ؛ ٤/ ٣٦٧.

عَلَى النِّسآءِ..." [1]، والأصلُ في إطلاقِه على الرجال؛ ولذلك قُوبل بالنساءِ في قولهِ: " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ... وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ""[2].

إذن بَقِيَتْ صورتان أخريان مفهومتان من التعبير القرآني بالصورتين المذكورتين؛ ألا وهما سخرية الرجال من النساء، والعكس.

والسؤال: لِمَ لمْ تذكرهما الآية الكريمة؟! والجواب أنه ـ فضلا عن أن البلاغة الإيجاز، والقرآن هو قمة الإعجاز البلاغي، وقد عبَّرَ بالإيجاز هنا ـ غيرُ مُستساغٍ في المجتمعات المحافظة أن يجالس جمع من النساء جمعًا من الرجال والعكس؛ فضلا عن المضاحكة، والمراقصة، والسخرية؛ فلم يكن هناك داعٍ إلى تفصيل الصورتين الأخريين. ـ والله أعلم ـ!

هذا، ويستمر السبك بالإحالة الضميرية في النص الشريف؛ في قوله ـ صلى الله عليه وسلم:" اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا!"؛ وهنا ضميران آخران للابن وأمه؛ أما الأول فهو (أنتَ) المستتر وجوبا في فعل الأمر الذي غرضه النصح والإرشاد والتعليم والتوجيه (استأْذِنْ)، وأما الثاني فهو ضمير الغيبة المُحال إلى الأم في (عليها)؛ فما زالت بؤرة الانطلاق في النص مستمرة مع الإحالة الضميرية؛ مما يَسْبِكُه ويَسْجِمُه سَجْمًا مجدولًا مُضَفَّرًا.

ثم يعود الابن للحوار بإحالتين متكررتينِ في قوله:" إِنِّي خَادِمُهَا"؛ فهي جملة تذكرنا بقوله:" إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ"؛ لذا فقد كرَّرَ له النبي ـ صلى الله عليه

(١) سورة النساء: من الآية ٣٤.

(٢) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون؛ المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)؛ المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط ـ الناشر: دار القلم، دمشق ـ ١/ ٣٦٠.

وسلم ـ الأمر ذاته بالضميرين ذاتهما " اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا!" بضميري الخطاب (أنت)، والغيبة (ها).

ثم يأتي ضميرا الخطابِ والغيبةِ للابن وأمه تارةً أخرى في كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الجملة التي حملتْ قمةَ الاستشراف وأروعَه، كما حملت الجوابَ المُسْكِتَ الذي جاء في صورة السؤال الإنكاري للابن المُلِحِّ:" أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟!"؛ فجاءت الإحالة بالضمير المستتر وجوبا (أنت) في الفعل المضارع (تحب)، و(ترى) إلى الابن، ثم الإحالة بضمير الغيبة المحال به إلى الأم في الفعل المضارع (تراها)، وقد قدمت فائدة التعبير بالمضارع في النص الشريف، ولكنني أتوقَّف مع بيت القصيد؛ ألا وهو الاستشراف المستقبلي منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سُمِحَ للابن بعدم الاستئذان على أمه؛ فقد تكون النتيجة أن يراها في مرة من المرات عريانة، وهنا يأتي الخطر المُستشرَفُ على الابن، والأم، والمجتمع بأَسْرِه.

أما الخطر المُستشرَف على الابن فيبرز في أن نظره سيقع على حُرْمَةِ أقرَبِ الحُرُمات إليه ـ أمه ـ وهنا يتنوع الخطر؛ فإذا كان الابن يعيش في أحوال بيتٍ طَبَعيَّةٍ فإنه سيخجل وينصرف، ولكن ما من شكٍّ أن الصورة الذهنية ستبقى تراوده أزمنة طويلة، تروح وتجيء، وتجيء وتروح حتى في منامه، وربما يأتيه احتلام رغمًا عنه متأثرا بما رآه من أمه، بل ربما يبحثُ عن رؤيةِ ما رآه مرة أخرى مختلسا النظر إليها في أماكنِ خلوتها من دون علمها، أو أنه يذهب إلى امرأة أخرى ليست مَحْرَمًا له ـ جارة، أو زميلة، ... ـ لينظرَ مفاتنها، وإذا أُتيح له الأمر استمتع بهذه المفاتن.

وأما إذا كان ذلكم الابن يعيش في أحوال بيتٍ ليست طبعيَّةً، قد شرَّدَتْه ظروفُه الاجتماعية، ومزَّقَتْه نَكَباتُه الاقتصادية؛ فهنا يكون الخطر الأكبر المباشر الذي تستشرفه عبارة الصادق المصدوق:" أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟!"؛ إذ يَزيدُ

الشيطانُ الهمَّ همًّا، والبؤسَ بؤسًا؛ فلا تجد الأمُّ غضاضةً في أن يكون ولدها هو ملاذَ رغبتِها الجنسية، وأُنْسَ وِحدتها العاطفية؛ فيقع ما لا تُحمَد عُقباه ! وكم قرأنا، وسمعنا، وشاهدنا على الشاشات حكاياتٍ وقصصًا عن زنا المحارم ـ عياذا بالله ـ! .

وأما الخطر المُستشرَف على الأم؛ فيتمثَّل في:

أولا ـ إسقاط حدِّ الحياء بينها وبين ولَدِها؛ فأنى لها بعد ذلك أن تأمرَه أو تنهاه.

ثانياً ـ التعدي على خصوصيتها المصونة التي حفظها لها الشرع الحنيف حتى من أقرب الناس إليها؛ من فلذة كبدها التي تمشي على الأرض ـ ولدها ..

ثالثاً ـ إذا كانت من ذلكم البيت الثاني المذكور سابقا؛ وقع المحظور الذي ذكرنا، فبعد أن كانت تخجل من نفسها، وتطرد وساوس فكرها وشيطانها؛ أتيح لها المجال من حيث لا تحتسب، ومن دون قصد منها؛ إذن فخيرٌ وبركة ـ.

وَلْتُتَأَمَّلْ لفظة (عريانة) التي تحمل معنًى حسيًّا، وآخر معنويًّا؛ فكما أنها تجردت من ملابسها تجردت من عفتها ووقارها وحرمتها.

وأما الخطر المستشرَف على المجتمع فينتج من هذا النشء الذي يخرج إلى مجتمعه مُدمَّرًا نفسيًّا، مقتولا جسديًّا، مغتالًا معنويًّا؛ بسبب هذا الانحلال الذي يعيشه في بيته مع المَدْرَسَةِ التي إن أحسنَّا إعدادها أخرجنا شعبا طيب الأعراق، وإلا يَكُنِ الأمر منقلبًا، وأنى لمجتمع هذا دَأبه، وهذه صفته أن يُفلح أو ينجح أخلاقيًّا، قد ينجح اقتصاديًّا، أو سياسيًّا بسبب عوامل أخرى، ولكنه ما من شكٍّ أنه سيرسب أخلاقيا رسوبا بيِّنًا، وسيفشل فشلا ذريعا، وتكون عاقبتُه خُسْرًا.

وليس بمستغرَبٍ في ظلِّ غياب معاني هذا الهدي النبوي المستشرِف للمستقبل، وغياب غيره من هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مجتمعاتنا التي تبحث

عن تقدم زائف، وحضارة زائفة؛ ليس بمستغرب أن يسأل رجلٌ شيخًا في برنامج تلفازي عن حكم النوم بجوار أمه، أو أن يسأله آخرُ عن حكم جلوس الأم مع أبنائها بلباس نومها!

ثم يختم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصه الشريف بالجملة ذاتها " اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا ".

وخلاصة السبك بالإحالة الضميرية في النص الكريم على النحو الآتي:

المُحال إليه	الضمير المُحال (نوعه وعدده)
الابن	ـ ثلاثة ضمائر ظاهرة للتكلم: ١ ـ (ياء المتكلم) في (أمي). ٢ ـ (ياء المتكلم) في (إنّي) مرتين. ـ ضمير مستتر وجوبا للمتكلم في (أستأذِنُ). ـ خمسة ضمائر مستترة للخطاب: ١ ـ (أنت) المستتر وجوبا في فعل الأمر (استَأْذِنْ) ثلاث مرات. ٢ ـ (أنت) المستتر وجوبا في المضارعين (تُحِبُّ) (تَرَى). ـ ضمير ظاهر للغيبة في (له). ـ ضمير مستتر جوازا للغيبة في (قال: لا).
الأم	ستة ضمائر ظاهرة للغيبة وردت في [معها ـ خادمها ـ عليها (ثلاث مرات) ـ تراها].
النبي ـ عليه السلام ـ	ضميران مستتران للغيبة في [قال (مرتين)].

المُحال إليه	الضمير المُحال (نوعه وعدده)
المجموع	١٩= ١١ للابن + ٦ للأم + ٢ للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وهذه نسبة متوقعة؛ إذ إن المشكلة مشكلة الابن، وهو السائل المستفسر المواجه للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ فكانت الإحالة إليه بالضمير ضعف الإحالة إلى الأم تقريبا.

ويلاحظ قلة ضمير الغيبة في جانب الابن؛ لأنه موجود في حضرة المستشرِف المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأما الضمائر المُحالة إلى الأم فكلها غائبة؛ إذ إنها ليست في المجلس ـ وقد فصلنا القول في ذلك قريبا ـ ، وأما ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بضمير الغيبة المستتر مرتين؛ فهذا معادل للتصريح بصفته [رسول الله] ـ عليه السلام ـ مرتين في النص.

وما كان لهذه الضمائر أن تُفْهَمَ إحالاتُها، وأن يُسْتَنْبَطَ دورُها في سبك النص لولا النظر إلى قيمة سابك مهم قبلها؛ ألا وهو السياق الخارجي الذي بيَّنه لنا عطاء بن يسار راوي الحديث ـ رضي الله عنه ـ من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأله رجلٌ؛ فقال:" ... " الحديث.

ولا غَرْوَ! فالنص والسياق صنوانِ يُنير كل منهما لأخيه الطريق؛ إذ العلاقة بينهما وثيقة.

وما يَعْنِينَا هنا دَوْرُ السياقِ في سبك النص؛ فهو يعتمد في فهمه فهما سليمًا، وإدراك علاقات الترابط والانسجام فيه ـ على السياق الذي يُعين المتلقي على معرفة المرجعيات الإحالية؛ " ولذلك؛ أكَّد النصيُّون على دوْر السياق في توجيه المتلقِّي توجيهًا سديدًا نحو إيجاد العلاقات أو الروابط بين العناصر الإحالية

والعناصر الإشارية، سواء في النص أو في خارج النص، ولاسيما إذا كانت مرجعيَّة الضمير تعود إلى السياق الخارجي"[١].

هذا، ووَحْدَةُ الموضوع في هذا النص الحديثي الاستشرافي من وسائل الترابط النصي فيه؛ فهو توجيه منه – صلَّى الله عليْه وسلَّم – لذلك الابن السائل، ولكل ابن في الدنيا من أقصاها إلى أقصاها أن يستأذن على أمه.

وبالعودة إلى مظهر آخر من مظاهر السبك اللفظي في النص يبدو أمام أعيننا واضحا ذلك السبك المعجمي؛ و" يقصَدُ به العلاقة الجامعة بين كلمتين أو أكثر داخل المتتابعات النصية، ومن أدواته التكرار: ويقصد به تكرار لفظتين مرجعهما واحد؛ مما يساعد على وجود ترابط دلالي "كما أن التكرار عامة يسمح للمتكلم أن يقول شيئًا مرة أخرى بالتتابع مع إضافة بُعْدٍ جديدٍ له"(٢).

أما وظيفته فهي تحقيق العلاقة المتبادلة بين العناصر المكونة للنص، ويشترط لتحقيق هذه الوظيفة شرط أساسٌ؛ وهو أن يكون لهذا الملمح (العنصر) المكرر نسبة ورود عالية في النص تميزه عن نظرائه، وأن يساعدنا رصده على فك لغز النص وإدراك كيفية أدائه لدلالته، فهو فوق كونه يؤدي وظائف دلالية معينة؛ فإنه يؤدي كذلك إلى تحقيق السبك النصي، وذلك عن طريق امتداد عنصر من أول النص حتى آخره، وهذا الامتداد يربط بين عناصر هذا النص مع مساعدة عوامل السبك الأخرى[٣].

(١) التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف؛ ص١١.

(٢) نظرية علم النص؛ ص ١٠٦.

(٣) ينظر: علم اللغة النصي ٢/٢١-٢٢، ونظرية علم النص؛ ص ١٠٧.

ويقسم التكرار إلى دلالي ولفظي، والدلالي" ينقسم إلى تكرار معجمي مفهومي بأن يتكرر العنصر مع الاحتفاظ بالمدلول نفسه، والتكرار بذلك يحافظ على الإشارة إلى الكيان ذاته في عالم النص والخطاب... وتكرار معجمي فقط بأن يتكرر التعبير مع حمل مدلول مختلف تمامًا في المرة التالية (مشترك لفظي)"(١).

وهذا السبك المعجمي عن طريق التكرار الدلالي يكاد ينطق من شدة وضوحه وبروزه في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:" استأذِنْ عليها"؛ هذه العبارة التي ذُكرت متكررة ثلاث مراتٍ في النص بمدلول واحد؛ فهي تمثل خيطا يربط جمل النص، ويسبكه من أوله إلى آخره، كما أن الجملة جاءت مرة محذوفة بعد سؤال الابن: أستأذِنُ على أمي؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: نعم! أي: استأذِنْ عليها.

وهذا التَّكرار لهذه الجملة يناسب هذا الإلحاح في العرض من الابن على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الإلحاح الذي بَدا في قول الابن:" إني معها في البيت ـ إني خادمها "، وهذا يُوحي بأن الابن كان يريد حلًّا آخر؛ فهو يُلِحُّ لعل النبي الكريم يجد له مخرجا، وكان يكفيه إجابة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: " نعم!"، ولكنه أخذَ يرتقي في أسبابه؛ فهو معها في البيت، ولكن لعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتقد أنه لا يخدمها؛ فلقاؤه بها محدود؛ فيقول الابن: " إني خادمها "، فلا يَزيد النبي الكريم على قوله:" اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا"؛ فالحكم واحد ولن يتغيَّر مهما ارتقيتَ في أسبابك أيها السائل.

ومن أدوات السبك البارزة في النص أيضًا ـ الحذف الذي جاء في موضعين من النصِّ الكريم؛ الأول حين أجاب النبيُّ ـ عليه السلام ـ السائلَ بقوله:" نعم "

(١) نظرية علم النص؛ ص١٠٧.

مباشرة، ولم يقل له: استأذِنْ عليها. وكأنه ـ عليه السلام ـ ظنَّ الإجابةَ كافيةً، وأن الابن سيكتفي بها، ولكنه وجد غيرَ ذلك.

والموضع الثاني حين أجاب الابنُ سؤال النبي ـ عليه السلام ـ: " أتحبُّ أن تراها عريانةً؟"؛ فقال: لا. ولم يقل: لا أحب أن أراها عريانة؛ فسؤال النبي وقع من الابن موقع الدهشة والمفاجأة، وكأنه لم يرد أن يكرر الجملة لصعوبتها على نفسه وفطرته؛ فأنَّى لابن سَوِيٍّ أن يقبلَ رؤية أمه عريانة!

وأيضا هناك جمل محذوفة تُستنبَطُ من السياق العام للنص؛ هذه الجمل تختزلها حركاتُ الوجه من السائل والمسؤول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي لم نرها بالطبع، ولكنها حركات إنسانية طَبَعِيَّة، تتكرر في حواراتنا اليومية المشابهة؛ فكأني أرى السائل يقول للنبي ـ عليه السلام ـ: كيف أستأذن عليها وأنا معها في البيت؟! كيف أستأذن عليها وأنا خادمها؟!

وكأني أُراه ـ عليه السلام ـ في جملته الأخيرة وهو يقول للسائل: إذا كان الأمر كذلك، وكنتَ لا تحب رؤية أمك عريانة؛ فاستأذنْ عليها!

ومن هنا يتضح دور الحذف في سبك النص، والوصول إلى الغرض الاستشرافي فيه من خطورة عدم الاستئذان، وما يترتب عليه من النظر، وما يترتب على النظر ممَّا لا تُحمَد عُقباه، وأيضا التماسك بين هذا الحذف وبؤرة النص ونواته.

ثانياً ـ مظاهر الحَبْكِ في الحديث الشريف محل الدراسة :

الحبك:" يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص، ونعني الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص إنتاجًا وإبداعًا أو تلقيًا

واستيعابًا، وبها يتم احتباك المفاهيم من خلال قيام العلاقات أو إضفائها عليها إن لم تكن واضحة مستعلنة على نحو يستدعي فيه بعضها بعضا، ويتعلق بواسطته بعضها ببعض" (١).

ويشتمل الحبك على عدة أمور هي:

١. العناصر المنطقية: كالسببية والعموم والخصوص.

٢. معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.

٣. السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية. ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم" (٢).

وأول مظاهر الحبك في النص الكريم ما يظهر من عنصر المنطقية؛ من سببية وعموم وخصوص؛ أما السببية فتمثِّل صورةً من صور الاستشراف في الحديث الشريف؛ إذ إن كل ما ذكرناه من مخاطر هو مُسَبَّبٌ عن عدم الاستئذان؛ فيقع المحظور؛ ولذلك فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤكِّد على مسألة الاستئذان تجنبًا لخطر النظر في حديثٍ ـ قد يتناوله مُدَّعُو المَدَنِيَّةِ والتنويرِ والتحضُّرِ بالاستنكار ـ بحجة أن النبيَّ الكريمَ الحليمَ لا يصدر منه هذا؛ ألا وهو تعليقه ـ عليه السلام ـ في نهاية الحديث الذي رواه سهل بنُ سعد؛ قال:" اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَمَعَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ:" لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ؛ لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ" (٣).

(١) في البلاغة العربية؛ د/ سعد مصلوح ص ٢٢٨ ، نحو النص نظرية وتطبيق ص ٧٦ .

(٢) النص والخطاب والإجراء؛ ص ١٠٣.

(٣) صحيح البخاري ـ الحديث رقم ٦٢٤١.

فأنَّى للنبيِّ الحليمِ أن يقول هذا ـ كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ـ فهؤلاء لم يُبقوا على حرمةٍ، ولم يعلموا أن الله يَغارُ والرسولَ يَغارُ، بل هما أشدُّ غيرة.

وتظهر هذه السببية النحوية النصية في هذه الفاء التي تكررت في النص سِتَّ مراتٍ، وإن كان يظهر في بعضها إفادة العطف إلا أنه عطف يتضمن السببية؛ فكل جملة بدأت بالفاء في النص هي في الحقيقة مُسَبَبةٌ عما قبلها، وقد وضع النحاة خلاصة لقضية السببية في الفاء؛ يقول المرادي:" لا يخلو المعطوف بالفاء من أن يكون مفرداً، أو جملة، والمفرد: صفة، وغير صفة؛ فالأقسام ثلاثة؛ فإن عطفت مفردًا غير صفة لم تدل على السببية؛ نحو: قام زيد فعمرو. وإن عطفت جملة، أو صفة، دلت على السببية غالبًا؛ نحو:" فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ "(١)"(٢).

وقال أيضًا:" الفاء الجوابية: معناها الربط، وتُلازِمُها السببية"(٣).

وأبرز مظاهر السببية في الفاء الجملة الأخيرة من النص:" فاستأذِنْ عليها"؛ فالنبي ـ عليه السلام ـ كأنه يقول للابن ـ بعد إجابته بـ "لا" ـ: فإذا كان الأمر كذلك؛ فهذا سَبَبٌ بالغٌ للاستئذان على أمك.

وقد جمعت الفاء هنا بين عطفها للجمل والربط؛ مما جعلها ضالعةً في السببية.

ومن مظاهر الحبك أيضا الخصوص والعموم؛ فإذا كان سياق الحديث خاصًّا بسؤال ذلك الرجل عن الاستئذان على أمه؛ فإن في إجابة النبي ـ عليه السلام ـ عموما لكل إنسان على وجه البسيطة، يريد الدخول على أمه؛ وقد" قال جُمْهُورُ أَهْلِ

(١) سورة القصص: من الآية ١٥.

(٢) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني؛ للمرادي؛ ص٦٤.

(٣) السابق؛ ص ٦٦.

الْعِلْمِ: الْحُكْمُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَوَامِرِ جَمِيعًا؛ فَلَا يُصْرَفُ شَيْءٌ مِنْهَا إلَى الْخُصُوصِ، وَلَا يُتَوَقَّفُ فِيهَا إلَّا بِدَلَالَةٍ"(١).

هذا، وإذا كان من عناصر الحبك في النصوص" السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية، ويتدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم"؛ فمما لا ريب فيه أن استشرافه ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمستقبل في أحكامه التي منها سبر غور النفس البشرية وميلها الغَرَزِيِّ تجاه الشهوات عموما، والجنسية منها على وجه الخصوص ـ إن هذا الاستشراف ليتجلَّى في النص محل الدراسة ـ كما ظهر في التحليلات السابقة ..

ولا غرو! فَسَيِّدُ الخلق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ" مَا "يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥)"(٢)؛ فمعارفه ـ عليه السلام ـ من الوحي، والوحي من الله، والله يعلم غيب السموات والأرض؛ لذا قال ـ عليه السلام ـ:" يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلبَكَيْتُمْ كَثِيرًا!" (٣).

ولذا كان استشرافه ـ عليه السلام ـ ليس بابا من أبواب المعرفة فقط، بل هو تشريع.

(١) الفصول في الأصول؛ للجصاص ٩٩/١.

(٢) سورة النجم: الآيات ٣ ـ ٥.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري؛ حديث رقم (١٠٤٤ ، ٤٦٢١ ، ٥٢٢١) وغيرها من المواضع، وصحيح مسلم؛ حديث رقم (٢٣٥٩).

المبحث الثاني

تَجَلِّيَّات القَصْدِيَّة، والمَقْبولِيَّة، والتَّناصِّيَّة، والمَقاميَّة، والإعلامية في النصِّ

أولًا ـ القصدية:

من أوضح التعريفات لها أنها" جميع الطرق التي يتخذها منتجو النصوص في استغلال النصوص من أجل متابعة مقاصدهم وتحقيقها"(١).

وللإمام عبدالقاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ إسهام بديع في القصدية؛ إذ يقول:" لا يكون ترتيبٌ في شيء حتى يكون هناك قصدٌ إلى الصورة وصنعةٌ، إن لم يُقَدَّم فيه ما قُدِّمَ ولم يُؤخَّر ما أُخِّر، وبُدئ بالذي ثُنِّي به أو ثني بالذي ثلث به ـ لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصنعة، وإذا كان كذلك فينبغي أن يُنظَر إلى الذي يَقصِد واضعُ الكلام أن يحصل له من الصورة والصنعة: أفي الألفاظ يحصل له ذلك أم من معاني الألفاظ ؟ وليس في الإمكان أن يشك عاقل إذا نظر أن ليس ذلك في الألفاظ"(٢).

فلْيُتَأَمَّلْ قوله:"ينبغي أن يُنْظَر إلى الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصنعة".

ونصنا الشريف الذي جاء في صورة حوار عن طريق السؤال من ابنٍ يستفسر عن حكم الدخول على أمه: أيستأذن أم لا؟ وجواب من المستشرف الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ وهذا الأسلوب الحواري في صورة السؤال والجواب كفيلٌ بأن يصل إلى الغرض من هذا النص؛ ألا وهو مَسُّ هذه الغريزة

(١) علم لغة النص، النظرية والتطبيق؛ ص ٢٨.

(٢) دلائل الإعجاز ١/ ٣٦٤.

الفطرية بين الجنسين، وحجبهما عن الانزلاق في براثنها الخانقة، وشَرَكِها القاتل ـ كل ذلك طالما أن الجنسين لم يسلكا الطريق الشرعي لفض غشاء هذه الغريزة ـ.

وتبرز قمة القصد من النص الكريم في سؤاله ـ عليه السلام ـ:" أَتُحِبُّ أن تراها عريانة؟! هذا السؤال الذي يستثير نفس كلِّ إنسان حرٍّ كريم، ينظر إلى أمه نظرةَ إجلال وتقدير، ثم تعلو القصدية في النص بهذا الجواب الذي لم يحتج إلى طولِ تفكير، أو عُمْقِ نظرٍ:" لا ".

ثانياً ـ المقبولية:

يتعلق هذا المعيار بـ "موقف المتلقي من قبول النص"[(١)]؛ فـ " هو يتضمن مستقبل النص إزاء كون صورةٍ ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نصٌّ ذو سبك والتحام"[(٢)]؛ مما يعني أن هذا المعيار يتوقف أيضًا على قوة التماسك والترابط لمعيارَي (السبك والحبك)؛ إذ تعمل هذه المعايير متضافرةً للوصول إلى الغاية المرجوة من النص وقبوله لدى المتلقين.

وبتطبيق هذا المعيار على الحديث الشريف محل الدراسة من ناحية قبوله سبكًا وحبكا؛ نجده محبوكا مسبوكا . كما سبق .؛ مما يجعله ذا قبول حَسَنٍ لدى المتلقين، ولكن إذا نظرنا إلى جانب آخر من جوانب المقبولية؛ ألا وهو جانب البُعد الثقافي ووجهات النظر الثقافية والاجتماعية ، وما" يتصل بتحديد موقف المتلقي من الكلام، ومدى تقبله لسلسلة الأحداث الكلامية على أنها نص قابل لأن يوصف بالسبك والحبك، وأن له نوعًا من الجدوى بالنسبة للمتلقي؛ كأن يكتسب معرفة أو

(١) نظم الدرر ١٩ / ١٣٩.

(٢) النص والخطاب والإجراء ؛ ص ١٠٤.

يتبنى موقفًا، أو يسهم باستجابة لإنجاز خطة"[١]؛ إذا نظرنا من هذه الزاوية وجدنا أنفسنا نموج في صراعات فكرية معاصرة بين ثلاثة اتجاهات تتمثل في وسطية بين إفراط وتفريط؛ فمن أبناء هذه الأمة من يستقبل النصوص التشريعية برأي واحد وفكر واحد؛ مما يجعله يقع في دائرة الإفراط والتشدد، ومنهم من باع للهوى نفسه، وللضلالات فكره؛ فيتجاوز تلك النصوص، ويقفز عليها، بل وينكرها؛ فيقع في شَرَكِ التفريط، ثم تبقى هذه الطائفة الوسطية التي تتلقى النصوص في إطارها الشرعي المتعدد من الفقهاء والمفسرين والمفكرين المعتدلين؛ مما يحرك هذه النصوص على أرض الواقع من دون إفراط ولا تفريط؛ فـ" عبارات العلماء لها مَنَادِحُ لو سارت بها العِيسُ كلَّتْ"[٢].

هذا، وينظر علماء النص إلى معنى أوسع لهذا المعيار يندرج تحت مصطلح المقبولية؛ ألا وهو القبول" باعتباره رغبة نشطة للمشاركة في المقال ومشاطرة الهدف؛ وبهذا يكون القبول حدثًا قائما بذاته، وهو يتضمن الدخول في التفاعل المقالي مع كل ما ينطوي عليه ذلك من نتائج[٣]؛ فالمقبولية إذن معيارٌ لَحْمُهُ ودَمُهُ المتلقي.

ثالثًا ـ التَّناصِّيَّة:

لهذا المصطلح تعريفات كثيرة عند الباحثين الغربيين والعرب، ولكن من أقربها إلى بحثنا أنها" علاقة تقوم بين أجزاء النص بعضها وبعض، كما تقوم بين النص والنص، كعلاقة السؤال بالجواب، وعلاقة التلخيص بالنص المُلَخَّص، وعلاقة

(١) في اللسانيات العربية المعاصرة ؛ ٢٥٠.

(٢) من أقوال الشيخ العلامة محمد أبي موسى؛ الأستاذ بجامعتي الأزهر وأم القرى ـ حفظه الله ـ .

(٣) مدخل إلى علم لغة النص؛ ص ١٧٨ ، نحو النص نظرية وتطبيق؛ ص ١٠٣ .

المسوَّدة بالتبييض، وعلاقة المتن بالشرح، وعلاقة الغامض بما يوضحه، وعلاقة المحتمل بما يحدد معناه، وهذه العلاقة الأخيرة هي المقصودة بعبارة: (القرآن يفسر بعضه بعضًا)"[١].

وإذا ما ذهبنا للبحث عن نصوص أخرى تحمل محور النص محل الدراسة؛ فإننا لن نَعْدِمَها قرآنًا وسنةً، بل إن شراح الحديث نصوا على ذلك نصًّا؛ يقول ابن بطال معلقا على الحديث محل الدراسة:" وأصل هذا الكلام في قوله ـ تعالى .: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) [٢] الآية. قال أبو عبيد: فأما ذكور المماليك فعليهم الاستئذان في الأحوال كلها. وهذا الحديث مما يَرُدُّ قول أهل الظاهر، ويكشف غلطهم في إنكارهم العلل والمعاني، وقولهم إن الحكم للأسماء خاصة؛ لأنه ـ عليه السلام ـ علل الاستئذان أنه إنما جعل من قبل البصر؛ فدل ذلك على أن النبي ـ عليه السلام ـ أوجب أشياء وحَظَرَ أشياء من أجل معانٍ عُلِّقَ التحريمُ بها، ومن أبى هذا ردَّ نَصَّ السنن"[٣].

فقد ذكر ابن بطال في تعليقه نصًّا قرآنيًّا هو الأصل للحديث المدروس، ثم أشار إلى نص نبوي كريم، سبق ذكره .:" اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى

(١) نحو الجملة ونحو النص ؛ ص ٢.

(٢) سورة النور: الآية ٥٨، وهي بتمامها:" يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

(٣) شرح صحيح البخاري؛ لابن بطال (ت: ٤٤٩هـ)؛ ٩/ ٢٢، وينظر: الاستذكار؛ لابن عبد البر ٨/ ٤٧٤.

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَمَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ:" لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ؛ لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ البَصَرِ"(١). والباب واسع.

رابعاً ـ المَقاميَّة:

وهي العوامل" التي تجعل النص مرتبطًا بموقف سائد يمكن استرجاعه، ويأتي النص في صورة عمل يمكن له أَن يراقب الموقف وأن يغيره، وقد لا يوجد إلا القليل من الوساطة في عناصر الموقف كما في حالة الاتصال بالمواجهة فيشأن أُمور تخضع للإدراك المباشر ..."(٢).

والحق أن هذا المعيار لا يحتاج إلى مزيد بيان؛ فأحوالنا الاجتماعية المضطربة تستدعي هذا النص الكريم صباحَ مساء، وشاشات التلافيز وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة لا ينقطع بَثُّها عن المشاكل الناتجة عن الاختلاط غير المحسوب بين الجنسين.

وقد حظي هذا المعيار باهتمام كبير لدى علمائنا قديما خاصة البلاغيين؛ فلا يكاد يخلو كتاب بلاغي من شعارات تتصل به؛ من مثل: (لكل مقام مقال) و(مراعاة مقتضى الحال).

وقد قَدَّمْتُ في أثناء البحث ما يبين صور هذا المقام، ويَدْعَمُها، ويفسِّرها؛ مما لا يحتاج إلى مزيدِ إعادةٍ أو بيان.

خامساً ـ الإعلامية:

(١) صحيح البخاري ـ الحديث رقم ٦٢٤١.

(٢) النص والخطاب والإجراء: ٤٥٦.

وهي" تتعلق باستقبال الكلام على أنه نص ذو محتوى، كما يتعلق بحكم المتلقي على طريقة عرض المحتوى بالجِدَّة وبمدى توقعه لطريقة العرض"(١).

وهنا تبرز أهمية إرادة الكشف عن الاحتمالات الاتصالية التي منها" المعلومات المختزنة والتجربة الوقائعية [التي] تجعل الناس يرون العالم بطريقة معينة؛ إذ يسمى النموذج السائد هنا: (العالم الواقعي) الذي يعدّ ما صدق فيه من قبيل (الحقائق)؛ مثل: المعتقدات السائدة، وبعض الحقائق والمعتقدات من قوة الثبات لدرجة عدم الحاجة إلى تعويضات؛ ككون الأسباب لها نتائج... فإذا كان هناك نص تبطل فيه هذه الحقائق؛ كالخرافة مثلا فلا بد أن يتقدم بقرائن محددة في المواقف المعينة تؤدي دور توجيهات لمستقبلي النص بأن يُجروا تعديلات على توقعاتهم؛ لئلا يصبح النص مشكلًا"(٢).

وفي هذا الإطار نجد الإعلاميةَ في الحديث الشريف محل الدراسة . قد بلغت مبلغا فائقا؛ إذ إن النص ذو محتوًى جادٍّ؛ فهو من النبي . صلى الله عليه وسلم . الذي استقبل ووضع أساس التشريع لهذه الأمة وما حولها . إن أرادوا الفلاح والنجاح .؛ فالمحتوى جادٌّ، لا سبيل فيه لِمَزْحٍ أو تغيير، أو خرافة.

كما أن الحالة الاتصالية المتعلقة بالمعلومات المختزنة والتجربة الوقائعية التي تجعل الناس يرون العالم بطريقة معينة . متحققة في النص الكريم؛ إذ إن ما يسمى بالنموذج السائد هنا: (العالم الواقعي) الذي يعدّ ما صدق فيه من قبيل (الحقائق)؛ لا تخطئه عينُ المتابع لأحوالنا الاجتماعية في هذا الجانب الذي دارت حوله الدراسة من سَبْرِ أغْوارِ النُّفُوسِ وتَرْبِيَتِها في جانب الميل الجنسي من الطرفين

(١) في اللسانيات العربية المعاصرة ؛ ص ٢٢٣ .

(٢) النص والخطاب والإجراء: ٢٥٧.

(الرجل والمرأة)؛ فالأسباب التي تتجاهل العمل بالحكم الشرعي الذي أعلنَ عنه المصطفى ـ عليه السلام ـ وأعلمَ به ـ لها نتائج تكاد تنطق بنفسها؛ لتعبر عن ذاتها في هذا الجانب.

ومن هنا نجد محاورَ النصية جميعَها قد أخذَتْ بزمام الغرض الرئيس من النص المدروس؛ لتصل به إلى قمة الدلالة الاستشرافية المطابقة للواقع المتغير.

ـ والله أعلم ـ!

الخاتمةُ

ـ أسألُ اللّهَ حُسْنَها ـ

بعد الانتهاء ـ بفضل الله عز وجلَّ ـ من دراسة الحديث الشريف عن حكم الاستئذان على الأم؛ دراسة استشرافية في ضوء نحو النص ـ توصَّلْتُ إلى مجموعة من النتائج والتوصيات؛ من أهمها:

ـ يُعَدُّ علم (نحو النص) علما شاملا، يطبق على النص من خلال معارف عديدة لغوية وغير لغوية.

ـ أفادت الدراسة من مفهوم النصية عند المحدثين ذاكرةً بعضَ ما ورد عند علمائنا القدامى من إشارات ونصوص حول معايير النظرية السبعة في تراثنا التليد؛ ثم تمَّ إسقاطها على الحديث الشريف محل الدراسة؛ حتى تتسق النظرية مع التطبيق.

ـ القواعد والوسائل والأدوات التي وضعها النصيون لتحليل النصوص ليست نهائية؛ فقد تظهر في أثناء تحليل نص من النصوص أدواتٌ أُخَرُ ينتجها السياق ورؤية الباحث؛ مما يسهم في سبك النص وحبكه وانسجامه.

ـ كلُّ نصٍّ من النصوص النبوية الشريفة جديرٌ بدراسة نحوية نصية مستقلة، تدور حول محوره ونواته وغرضه؛ فقد أوتي ـ عليه السلام ـ جوامع الكلم.

ـ الجملة المحور لنصنا المدروس هي سبر غور النفس وتربيتها في جانب الميل الجنسي بين الطرفين.

ـ تضافرت العوامل اللغوية المتنوعة وتكاتفت لتحقيق الانسجام العام في النص الشريف؛ عن طريق معايير نظرية نحو النص السبعة.

. الحديث النبوي الشريف حقيق بدراسته دراسة استشرافية؛ ففي نصوصه . عليه السلام . نظرات مستقبلية؛ إذ هو آخر من استقبل كلمة السماء إلى الأرض، ولا نبيَّ بعده سيأتي بجديد لا عن ماضٍ، ولا حاضرٍ، ولا مستقبل.

ـ وأخيرا يوصي الباحث بإقامة مشروع بحثي يدرس الأحاديث النبوية دراسة استشرافية في جميع مناحي الحياة؛ تشريعيةً، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، وعسكرية...

ثَبَتٌ بأهم المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.

١ـ الاستذكار؛ المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)؛ تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض . الناشر: دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢. استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية . رسالة ماجستير في الحديث الشريف؛ للباحث/عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع . كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية ٢٠٠٥م.

٣ـ البحث النحوي عند الأصوليين،د/مصطفى جمال الدين،وزارة الثقافة والإعلام، العراق،(١٩٨٠م).

٤ـ البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٢٠٠٦ م).

٥. التحليل اللغوي للنص . مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، ترجمه وعلق عليه: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، الطبعة الثانية، (٢٠١٠م).

٦. التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف (نماذج من صحيح مسلم)؛ رسالة ماجستير؛ للباحثة/ أحلام هويوة ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م ـ جامعة محمد خيضر بسكرة ـ الجزائر.

٧. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد؛ المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)؛ تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري . الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ١٣٨٧هـ.

٨ . الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسننه وأيامه = صحيح البخاري؛ المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي؛ المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر . الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٩. الجنى الداني في حروف المعاني؛ المؤلف: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم ابن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: ٧٤٩هـ) . المحقق: د فخر الدين قباوة . الأستاذ محمد نديم فاضل . الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان؛ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

١٠ـ الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية . رسالة ماجستير؛ للباحث/ عبد الله محمد المديفر ـ جامعة طيبة بالمدينة المنورة ١٤٢٧هـ.

١١ . الدر المصون في علوم الكتاب المكنون؛ المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)؛ المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط . الناشر: دار القلم، دمشق.

١٢ . دلائل الإعجاز:عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) تح: محمود محمد شاكر . مطبعة المدني بالقاهرة . دار المدني بجدة . ط: الثالثة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٣ـ السنن الكبرى؛ للبيهقي؛ المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ المحقق: محمد عبد القادر عطا . الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٤. شرح صحيح البخاري لابن بطال؛ المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ) . تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم . دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض . الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

١٥ . العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، د. سعد مصلوح، من مجموعة بحوث مهداة إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكراه الثانية، تحرير: وديعة طه نجم والدكتور عبده البدوي، جامعة الكويت، كلية الآداب،(١٤١٠ هـ . ١٩٩٠ م).

١٦ . علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، الطبعة الأولى، (١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠م) .

١٧ . علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) للدكتور/ سعيد حسن بحيري؛ مكتبة لبنان . ناشرون . الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان .

١٨ . علم لغة النص، النظرية والتطبيق، د. عزة شبل محمد، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، (١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩م).

١٩ . الفصول في الأصول؛ المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ) . الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية؛ الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٠ . في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، د. سعد مصلوح، عالم الكتب، الطبعة الأولى، (١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦م) .

٢١ . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: محمود بن عمر الزمخشري(ت: ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .
٢٢ـ لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، (٢٠٠٦م) .
٢٣. مدخل إلى علم لغة النص، روبرت ديبوجراند ولفجانج دريسلر، ترجمة: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، دار الكتاب، الطبعة الأولى، (١٩٩٢م).
٢٤. المراسيل؛ لأبي داوود؛ المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير ابن شداد بن عمرو الأزدي السِّجسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ المحقق: شعيب الأرناؤوط ـ الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت؛ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٥ـ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ـ المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ـ الناشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٢٦. مشكاة المصابيح؛ المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (ت: ٧٤١هـ)؛ المحقق: محمد ناصر الدين الألباني ـ الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

٢٧. موطأ الإمام مالك؛ المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛ صححه ورقمه وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي . الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان . ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٢٨. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) تح: د. مازن المبارك / محمد حمد الله . دار الفكر – دمشق . ط: السادسة .١٩٨٥

٢٩. نحو النصِّ نظرية وتطبيق سورة آل عمران أنموذجًا (أطروحة دكتوراه تقدم بها الباحث/ رافد حميد سويدان خلف . إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية . جامعة الأنبار . سنة ٢٠١١ م.

٣٠ ـ نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا، للأزهر الزناد؛ المركز الثقافي، ط١، ١٩٩٣م.

٣١ . النص والخطاب والإجراء، روبرت ديبوجراند، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة الطبعة الثانية، (٢٠٠٧م).

٣٢ . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)؛ المحقق: إحسان عباس . الناشر: دار صادر . بيروت ..

والحمد لله رب العالمين ،،،